تأملات في سورة
العاديات

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى - بمكة المكرمة

تأمـلات فـي
سـورة العـاديـات

تأليف

الدّكتور حسن محمّد باجوده

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الثالثة

١٤١٣هـ-١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام (مطابع الندوة) ☎ ٥٣٠٣٠٥٤
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

تصريح وزارة الإعلام
بمكة المكرمة
رقم / / م
وتاريخ / / ١٤١٣هـ

مُقدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

تأملات في سورة العاديات ، عنوان هذه الدراسة ، ضمن سلسلة دراساتنا المتأملة في كتاب الله تعالى . وكانت عنايتنا بالناحيتين المعنوية والصوتية واضحة . ففيما يتصل بجانب المعنى حاولنا أن نبين الترابط المعنوي بين الأقسام الثلاثة للسورة الكريمة . ومن أهم مظاهر ذلك الترابط ، العلاقة بين اندفاع الخيل في سبيل الله وبين اندفاع الكنود لنعم الله تعالى بعيداً عن الصراط السوي واندفاع الخلائق يوم القيامة من قبورهم كأنهم جراد منتشر . وإن ابتداء السورة الكريمة بالقَسَم بالخيل ، لفت الانتباه بقوة إلى قيمة الجهاد في سبيل الله تعالى ، وضرورة إعداد القوة لإرهاب عدو الله تعالى وعدو عباده المسلمين له عز وجل . وفيما يتصل بالجانب الصوتي ، حاولنا تبيين الوفاق الكامل في السورة الكريمة بين المعنى والمبنى . ومن أهم ما يلاحظ أنه في الوقت الذي تتتابع المشاهد وتتلاحق ، كما هو الحال بشأن تتابع مشاهد خيل الجهاد في سبيل الله وتلاحقها ، فإن الآيات تميل إلى القصر الملحوظ ، وتكون المقاطع الصوتية موزعة بين القصير والمتوسط . أما في حالة هدوء النفس وأساها فإن الآيات تميل إلى الطول . وهنا يوجد المقطع الطويل المسبوق بحرف لين . ومما يلاحظ في هذا الشأن أن عدد المقاطع في الآيات يرتبط بفورة النفس وهدوئها . فبما أن الهدوء يأخذ في الوضوح تدريجاً فإن الآيات تأخذ في الطول تدريجاً كذلك .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبل منا صالح الأعمال وأن يغفر لنا ما بدر من تقصير وألا يحرمنا من أجر ، إنه سميع مجيب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

مكة المكرمة
ذو القعدة سنة ١٣٩٦هـ

نظرة أولى للسورة :

سورة العاديات مكية في الراجح ، وقيل بل مدنية[1] وآياتها إحدى عشرة آية . وكلماته أربعون . وحروفها مائة وثلاثة وستون[2] وموضوعها الإنسان الذي تنبه إلى مسئوليته في هذه الحياة ، وضرورة سيره في الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم ، كي ينال يوم القيامة الثواب الذي أعده الله تعالى للمتقين ، وإلا فإن العقاب أليم .

والمتأمل للسورة الكريمة يتبين أن سلسلة المعاني مترابطة من ناحيتين رئيسيتين :

(أ) المعاني بطبعها مترابطة لوحدة الموضوع وترابط عناصره ، إذ تبدأ السورة الكريمة بالقَسَم ، يلي ذلك المقسم عليه ، وهو الإنسان الكفور للنعم بطبعه ، الحريص على كل خير لهذه النفس ، مما يشغله عن واجبه ، وقد يؤدى به ، إن لم يتدارك الأمر ، إلى مهاوي الردى ، لذا هو يذكّر بنهاية كلّ بداية ومنتهى كل طلب ، الجنة أو النار .

(ب) إذا تأملنا أجزء الكلام الطبيعية في السورة تبين أن ثمة تعاوناً بين المعنى والأصوات على تشكيل القوالب التي تسكب فيها المعاني ، ووضع الأبعاد المقدرة المضبوطة التي تقسّم أجزاء المعنى الواحد أو الفكرة الواحدة أقساماً متساوية تقريباً ، هذا إلى أن آيات المعنى الواحد تتفق في الفاصلة ، فنجم من

---

(١) انظر الإتقان ١١/١ ، وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ١٤٩/٣٠ (مطبوع بهامش تفسير الطبري) ، والبحر المحيط ٥٠٣/٨ .

(٢) انظر تفسير غرائب القرآن ١٤٩/٣٠ .

كل ذلك إرضاء العقل بفصوص حكم المعاني وإشباع النفس بتلاؤم أصوات المباني . فإذا كنا مثلاً بصدد أربع فواصل ، ارتبط بها أربع نغمات صوتية في السورة الكريمة ، فذلك معناه أننا بصدد أربعة أجزاء من المعاني .

تبدأ السورة الكريمة بآيات فاصلة الحاء ، ذوات النغمة الصوتية السريعة ، وقد عمق هذه السرعة ، مجيء الفاء العاطفة ، الدالة على التعقيب ، بين يدي الآيتين الثانية والثالثة ، التي تتمشى معها سرعة خيل الجهاد في سبيل الله ، في عدوها ضبحاً ، وورْيها بسنابكها الحجارة أثناء العدو قدحاً ، وإغارتها على أعداء الله صبحاً . قال تعالى : ﴿ **والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً** ﴾ . ويبلغ عجبنا منتهاه ، بشأن ملاءمة فاصلة الحاء لهذه المعاني في الآيات ، التي لحاسة الأذن فيها دور بارز ، حينما نتبين أن الضبح ، الذي نصت عليه الآية الأولى ، عبارة عن صوت يخرج من صدر الفرس أثناء اشتداد العدو ، عبر عنه ابن عباس بالقول محاكياً له أح أح[1] وحيث إن هذا الصوت ملازم للفرس في عدوه الذي يأخذ في الازدياد باطّراد حتى تتم الإغارة على أعداء الله تعالى صبحاً ، فذلك يعني أن هذا النوع من الصوت ، ملازم للفرس . وهي ملازمة أسعفنا على فهمها فاصلة الحاء التي لازمتنا مدة اشتداد الفرس في عدوه ، دون حائل أو شاغل ، حتى تم لخيل الله تعالى الإغارة على أعدائه ، ولأوليائه الالتحام بأولياء الشيطان ، وهنا لا يبقى الضبح ، المرتبط بالأذن ، هو العلامة المميزة للمرحلة التالية ، إنما النقع ، المرتبط بالعين ، وكأن العين لها الدور الآن بأكثر من الأذن . واللطيف في الأمر أن الفاصلة تتحول عيناً ! ﴿ **فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً** ﴾ فكأن الآيتين الكريمتين ، بتحول الفاصلة عيناً نبهتانا إلى دور حاسة العين المتقدم الآن على حاسّة الأذن .

لعلنا الآن ، ونحن بصدد الشق الثاني من القسم الأول في السورة ، أمام العمود الفقري لعملية الجهاد في سبيل الله ، أليس كل ما سبق من إعداد لعدة

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطبري ٣٠/١٧٧ ، وتفسير ابن كثير ٤/٥٤٢ ، والكشاف ٣/٣٥٤

وامتطاء لصهوات الخيل ، واتجاه صوب ميدان المعركة حتى الإغارة صباحاً ، بمثابة المقدمات لعملية الاصطدام الفعلي بأعداء الله ؟ أوليس كل ما يترتب من سير للأمور في المعركة وبعدها يبدأ من عملية الاصطدام الفعلي بأعداء الله تعالى ؟ إذن فلتنول هذه العملية العناية التي تستحق ، وليؤخذ أهم متعلقاتها ، وهو النقع دليلاً عليها ، ولتستعمل فاصلة العين دليلاً على امتياز هذه العملية التي يعتبر النقع أبرز متعلقاتها ، ولتستأثر آيتا فاصلة العين بجملتين فعليتين قادرتين على الإشعار بقيمة تلك العملية الفريدة التي لها ما بعدها ، وليسبق هاتين الجملتين في الآيتين حرف الفاء الدال على التعقيب ، على غرار مجيئه في آيتين في المجموعة الأولى ، دليلاً على تلاحق المشاهد ، وترابط حلقات المعاني ، ولتتحول النغمة الصوتية غير بعيد من النغمة السابقة .

وإن هذا التحول غير البعيد في النغمة الصوتية بالذات ، قادر على حملنا على الفهم بأن دور الأذن موجود وإن قل ، وأن دورها هي والعين ، في هذه العمليات متلازم . فإذا كان للأذن كبير دور في الآية الكريمة الأولى من السورة ، وللآية الأولى دورها الطبيعي في توجيه الآيتين التاليتين من حيث نغمة الكلام والفاصلة وجهة معينة ، وكان للعين كبير دور في الآية الأولى من فاصلة العين التي لها بشأن الآية التالية الدور نفسه ، فإن للأذن دورها في آيتي فاصلة العين ، وللعين دورها في آيات فاصلة الحاء . فعلى سبيل المثال ، لا يرى وري نار الحُباحب ، الناجم من اصطكاك حوافر الخيل بالحجارة أثناء العدو إلا بالعين ، مع أن الأذن تسمع ذلك الاصطكاك ، هذا إلى أن الضبح ملازم للخيل حينما تثير النقع وتتوسط الجمع . وإذا كانت فاصلة العين قد انفردت بمجيئها في آيتين ، إذ الفواصل الأخرى في ثلاث ، فما ذلك إلا لأن المعاني هي التي تملك زمام الألفاظ ، وليس العكس . وأين نجد هذه القاعدة مطردة ، إن لم يكن ذلك في القرآن الكريم !

فإذا تحولنا إلى آيات الفاصلة التالية وهي الدال ، تبينا أنها تجيء في ثلاث آيات . وقد سبق الفاصلة حرف لين ، الواو أو الياء . وحرف اللين بطبعه يتيح للنفس أن يمتد ، وبذلك تفرغ النفس أكبر قدر ممكن مما بها من شعور . أما الشعور هنا فشعور الأسى لجنس الإنسان الكفور بطبعه للنعم ، إلا من رحم ربك ، وإنه

بالإضافة إلى ذلك شهيد ، هكذا في صيغة المبالغة ، على نفسه ، إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال . وفي الوقت الذي يجحد الإنسان فيه النعم ويذيع النقم ، هو حريص أشد الحرص على الخير . وبذلك تتضح أهم صفات هذا الجنس من الناس . إن الواحد منهم إذا مسه الخير منوع وإذا مسه الشر جزوع . والآيات الكريمة تعرض لجنس الإنسان من زاوية الصفة أو الحال التي هو مستعد لأن يكـــون عليها ما لم تتداركه رحمة أرحم الراحمين ، وما لم يكن عنده الاستعداد لأن يعرف الحق فيتبعه . فإذا تحقق له ذلك تحوّل بإذنه تعالى إنساناً خليقاً بهذا الاسم ومن الذين يباهي بهم رب العزة ملائكته . وبهذا يتضح أن الآيات الثلاث تعرض لنوع واحد من الناس ، هم المخطئون الكفورون للنعم ، إذ يتمثل النوع الثاني في الأبرار المتقين . وحيث إن حال المخطئين المفرّطين في جنب الله ، تبعث على الأسى والحسرة ، ومن سمات النفس حينما تعرض لمثل هذا الموقف أن تكون هادئة أسى منكسرة حسرة ، فإن الآيات الثلاث لميلهن إلى الطول النسبي بالقياس لما سبق ، هذا إلى التنوع في الفاصلة المشعر بتغير المعنى ، ومجيء حرف اللين بين يدي الفاصلة ، يتيح كل ذلك للنفس أن تتخلص من أكبر كمية من شعور الأسى والحسرة .

إنّ كل هذه الظواهر ، حاملة للمنصف في النظر والتدبر على أن يأخذ العظة والاعتبار ، وأن يحرص جهد الطاقة على ألا يكون ذلك النوع من الناس الذي ينطق سوء حاله بسوء مآله ، على نحو ما بيّنت الآيات الثلاث الأخيرة التـــي تغيرت فيها الفاصلة المسبوقة بحرف اللين أيضاً . أمّا تغير الفاصلة فيتمشى مع تغير المعنى حيث إن السورة الكريمة ستعرض أخيراً لمصير ذلك النوع من الناس ، وأمّا حرف اللين فإن دوره شبيه بدوره في الفاصلة السابقة ، لأن الأسى موجود بشأن حال الإنسان الكنود في الدنيا والآخرة . وإذا كان الاختلاف طفيفاً بين آيات الفاصلتين الأوليين من وجهة تلاؤم الأصوات والمباني لتقارب الأحوال والمعاني ، فإن الاختلاف طفيف أيضاً في الوجهة ذاتها ، بين آيات الفاصلتين الأخريين للسبب ذاته . قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد . أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ .

وإذا كانت آيتا الفاصلة الثانية في السورة ، أطول نسبياً من آيات الفاصلة الأولى ، فإن آيات الفاصلة الرابعة والأخيرة ، أطول نسبياً من آيات الفاصلة الثالثة ، وكأننا كلما تقلبنا في معاني السورة أخذت النغمة تمتد ، وبدأت نبرة الأسى تشتد ، حتى تصل قمتها مع وصول الإنسان يوم القيامة الغايةُ التي تنتظره . إنها نهاية تعاون على إظهارها التصوير البديع للأحوال التي يمر بها يوم القيامة ذلك الإنسان ، والخيال الرفيع الذي يستطيع أن يملأ مجموعة من الفراغات تركتها السورة ، وزفرة الأسى التي تنطق بها المجموعة الأخيرة من الآيات حيث التعاون الكامل بين أكثر آيات السورة طولاً وبين حرف اللين بين يدي الفاصلة القادر على تعميق طول الآيات وزيادة رنة الأسى والحسرات .

والآن حانت العودة إلى آيات السورة الكريمة ، مرة أخرى ، بعد هذا العرض السريع للانطباع العام عنها ، كي نقف عند كل آية على حدة وكل فكرة منفردة .

نظرية ثانية للسورة :

في ضوء عرضنا الأول للسورة الكريمة ، يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

القِسمُ الأول

حيوانٌ يطيع المخلوق !

الآيات (١ ـ ٥)

وينفرد القسم الأول بكونه يتألف من شقين :

الشق الأول :

وهذه هي آيات الشق الأول : قال تعالى : ﴿ **والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً** ﴾ . وفي الآية الأولى : ﴿ **والعاديات ضبحاً** ﴾ يقسم رب العزة بشيء مما خلق ، ألا وهو الخيل . ومن حقه هو وحده عز وجل أن يفعل ذلك . وفي القَسَم بالخيل شرف أي شرف لها . وحق للخيل ذلك ، وقد قال المصطفى ﷺ[1] : « **الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة** » . ولكن أي أنواع الخيل هي التي تخصها السورة الكريمة بذلك الشرف . إنها خيل الجهاد في سبيل الله ، فليس هذا الشرف لخيل الزينة أو النزهة أو الاعتداء على حرمات الله تعالى ، وما إلى ذلك . إن هذا الشرف خاص بخيل الجهاد في سبيل الله والتي تهيأ لتلك المهمة الجليلة والهدف السامي . لذا نتبين أن السورة الكريمة تعرض لذكر الخيل وهي تطوي بفرسانها الأرض طيًّا قاصدة ساحة الجهاد في سبيل الله ، إلى أن يلتقي الجمعان ويحمي الوطيس ويقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً . وقد قال عز من قائل[2] : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ .

والسورة الكريمة تبدأ بالخيل وهي في أوج اندفاعها إلى ساحة الجهاد في سبيل الله ، تصل سير الليل بسير النهار ، وكلها عزيمة وتصميم ، وذلك امتداد لعزيمة المجاهدين فرسانها وتصميمهم . لذا يخرج من صدور هذه الخيل ، وهي في شدة اندفاعها الضبح ، وهو عبارة عن الصوت الذي يخرج حينما تبذل الخيل في عدوها

---

(١) صحيح البخاري ٤/٣٤ .

(٢) سورة الروم : ٤٧ .

منتهى طاقاتها . وقد قرّب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ذلك الصوت بالقول : أح أح ، كما مر بنا . وإذا كان البعض قد فسر الضبح بمعناه الآخر الذي يفيد هيئة للخيل في عدْوها ، ونوعاً معيناً من سيرها ، فبما أننا نستطيع أن نفسهم من القسم في الآية : (والعاديات) أسرع أنواع العدو ، وبما أن الضبح ، بمعنى الصوت الخارج من صدر الفرس ، يضيف زيادة مفيدة ، إذ يعني أن الخيل قد بذلت كل جهدها ، وأظهرت أقصى عدوها ، بدليل هذا الصوت الذي يخرج ، فلا مانع من قبول رأي الجمهور الذي ذهب إلى أن الضبح هو الصوت الخارج من صدور الخيل ، حينما تحمل على إظهار أقصى غايات عدوها . وبناء على ذلك يكون معنى الآية الكريمة الأولى ، والله تعالى أعلم : أقسم بخيل الجهاد في سبيل الله التي تطوي الأرض طيًّا لشدة عدوها ، حتى لكأنّ غليان صدورها ، المراجل ، لفرط حماسها ونشاطها المستمدين من حماس المجاهدين في سبيل الله ونشاطهم .

ومع أن العين تبصر الخيل في عدوها ، فلا يخفى أن الآية الكريمة تلفت الانتباه إلى أدق الجزئيات الدالة على اندفاع الخيل في سيرها ، ألا وهو الصوت الذي تنفرد الأذن بإدراكه ، والذي يسمع بوضوح حينما تحمل الخيل على إبراز أقصى طاقاتها أثناء العدو ، والذي يعتبر خير دليل على سرعتها والجهد الكبير الذي تبذل .

وإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية : ﴿ **فالموريات قدحاً** ﴾ تبينا أن للعين بشأنها دوراً لا يقل عن دور الأذن ، بل لعله يتقدمه . وتفسير ذلك هو أنه إذا كان الصوت الخارج من صدور الخيل لا زال موجوداً ، لأن نسبة المجهود التي تبذل آخذة في الارتفاع باضطراد ، وإذا كانت الأذن تستطيع من قريب أن تسمع صوت اصطكاك سنابك الخيل بالحجارة ، إلا أن الضبح غير جديد ، وصوت الاصطكاك لا يكاد يبين من بعيد . أما الشيء الذي يعتبر شاهداً أكيداً على أن سرعة الخيل آخذة في الازدياد باطراد ، فهو ذلك الشرر الذي يتطاير لانتظام حوافر كتيبة خيل الجهاد في سبيل الله ، بالحجارة ، دون أن يقلل ذلك من سرعة عدوها أو يفل من حدة نشاطها . وهكذا يتبين أن العين والأذن تشتركان في الآيتين الكريمتين الأوليين ، ولكن مجموع ما هو نصيب للأذن يكاد يتقدم مجموع ما هو للعين ، وبخاصة

الضبح الذي عبّر عنه ابن عباس بالقول : (أح أح) والذي قلنا إن له دوراً في توجيه الفاصلة في ذلك الشق وجهة بعينها . ولا يخفى أن كل مظاهر ذلك النشاط صورة لحماس المجاهدين في سبيل الله . ولا يخفى أيضاً أن استهانة الخيل بوعورة الطريق الذي تسلك يعني أنها خيل أصيلة مدربة مجربة ، ألفت كل أنواع الطرق ، رد فعل لعزيمة أصحابها المجاهدين في سبيل الله على حد قول المتنبي[1] :

على طرق فيها على الطرق رفعة وفي ذكرها عند الأنيس خمول

وإن إلف كل أنواع الطرق ، دليل على تجاربها السابقة المستمدة من تجارب أصحابها على خوض غمار كل أنواع المعارك . وإن انتصاراتها السابقة ، بدليل أنها تعاود الجهاد في سبيل الله ، دليل على أن النصر ، بإذن الله حليف هذه الكتيبة المجاهدة في سبيل الله دائماً . وقد قال المتنبي أيضاً في الخيل[2] :

فخاضت نجيع الجمع خوضاً كأنه بكل نجيع لم تخضه كفيل

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة الثالثة ، قال تعالى : ﴿ **فالمغيرات صبحاً** ﴾ . تبيّنا أنها تصل بخيل الله تعالى إلى مكان الإغارة وفي وقت الصباح بالذات . وإذا أخذنا بالرأي الغالب الذي يذهب إلى أن السورة الكريمة مكية وعرفنا أن الجهاد في سبيل الله تعالى بالسيف لم يؤذن به إلا بعد الهجرة ، استطعنا أن نفهم أن هذه الآية الكريمة تعتبر بمثابة الدرس الذي على المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ أن يطبقوه بحذافيره مستقبلاً . وهذا ما حدث تماماً بعد أن أذن الله تعالى للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن من حقهم بل من واجبهم أن ينتصروا لأنفسهم إذا ما أصابهم البغي ، وبعد أن تحول المسلمون من موقف المدافعين إلى موقف المهاجمين . فهذا هو المصطفى ﷺ والخلفاء من بعده ، كانوا يباغتون الأعداء صباحاً ، ليس للغرض الذي من أجله كان العرب قبل الإسلام يباغتون الأعداء صباحاً ، كي يتاح لهم أن يستاقوا النعم ويسبوا الذراري والنساء وينفروا ، وإنما لأن الأذان لصلاة الفجر هو

(١) التبيان ، شرح ديوان المتنبي ٣/١٠٠ .

(٢) التبيان ، شرح ديوان المتنبي ٣/١٠١ .

الفيصل بين المسلمين وغير المسلمين ، فإن سمع المجاهدون في سبيل الله تعالى أذاناً علموا أن القوم على إسلامهم وما بدلوا تبديلاً . أما إذا لم يسمعوا أذاناً في ذلك الوقت من الصلاة ، الذي يعتبر أنسب الأوقات لسماع صوت الأذان ، إن كان ثمة أذان ، إذ لا ضوضاء ولا حركة تحولان بين كل إنسان وبين أن يسمع أذاناً ، فإنهم ينتهون من عدم سماع صوت المؤذن إلى أن القوم ليسوا مسلمين لله رب العالمين . وهنا يباغت أولياء الله تعالى أولياء الشيطان ، مستفيدين من غفلة القوم واستغذائهم النوم واستمرائهم الكسل . وبذلك يجمع المسلمون بين خروج من اللائمة فقد ثبت لهم أن القوم لا يقيمون الصلاة عماد الدين . وفرق ما بين المسلم وبين سواه إقامة الصلاة(1) وبين تحقيق الحكمة القتالية في القول الذي جرى على لسان المصطفى ﷺ : «**الحرب خدعة**»(2) .

وكما يلاحظ فإن المجاهدين في سبيل الله إنما باغتوا الأعداء صباحاً لأنه ثبت لهم بالدرجة الأولى أن القوم غير مسلمين لله رب العالمين . وإن هذه الآية الكريمة : ﴿ **فالمغيرات صبحاً** ﴾ لتذكرنا بقوله ﷺ بعد ذلك : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله** »(3) .

وهكذا يتبين أن المسلمين في الحرب والسلم إنما كانوا يتحركون ويسكنون من أجل مرضاة رب العالمين .

---

(1) جاء في صحيح مسلم ١/٤٩ عنه ﷺ : « **إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة** » .

(2) اللسان (خدع) وقد جاء فيه : وفي الحديث : « **الحرب خَدعة وخُدعة** » . والفتح أفصح ، وخدعة مثل همزة . قال ثعلب : ورويت عن النبي ﷺ خَدْعة ، فمن قال خَدْعة فمعناه من خُدِعَ فيها خدعة فزلت قدمه وعطب فليس لها إقالة . قال ابن الأثير : وهو أفصح الروايات وأصحها . ومن قال لُخدَعة أراد هي تَخْدَع كما يقال رجل لُعَنَة يُلْعَن كثيراً . وإذا خدع أحد الفريقين صاحبه في الحرب فكأنما خُدِعت هي . ومن قال لخدعة أراد أنها تخدع أهلها كما قال عمرو بن معديكرب :

الحرب أول ما تكون فتيّة ... تسعى بزينتها لكل جهول

(3) صحيح البخاري ١/١٣ ، وانظر صحيح مسلم ١/٢٠٦ ، شرح النووي والسقا ٢/٢٧٧ .

وإذا كانت هذه الآيات الثلاث ، في الشق الأول من القسم الأول في السورة الكريمة ، تصور حركات خيل المجاهدين في سبيل الله حتى الإغارة على أعداء الله صباحاً ، مبتدئة من اشتداد خيل الله في عدوها ضبحاً ، فإنها تطوي العديد من المراحل السابقة المفهومة ضمناً لكل واحد يبصر بعيني رأسه خيل المجاهدين في سبيل الله تعالى وهي تطوي الأرض طياً وعليها فرسانها ، متجهة إلى ساحة المعركة . ونستطيع أن نوجز تلك المراحل المطوية في القول : إنها تأخذ بسبب من قوله تعالى في سورة الأنفال[1] : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ .

وإنّ الخيل ، وهي عماد الجهاد في سبيل الله في القديم ، تعتبر بثغير وسائل القتال خلال العصور رمزاً لكل وسائل الجهاد في سبيل الله . فعلى المسلم أن يكون قوياً دائماً ، وقد قال الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » . كما أن على المسلم أن يوطن نفسه للجهاد في سبيل الله ، لأن الإسلام هو دين الجهاد لإعلاء كلمة التوحيد ، شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحبّب في الجهاد في سبيل الله والحرص على إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة . إن على المسلمين وبخاصة في هذا العصر أن يعوا دروس القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، ولنا في رسول الله تعالى أسوة حسنة ، ثم في الصحابة والتابعين ، والتابعين لهم بإحسان .

أما وقد وصلت خيل الله تعالى إلى ساحة الجهاد في سبيل الله وأغارت على الكافرين الذين لا يقيمون الصلاة ، وهي عماد الدين ، فلم يبق لهذه الخيل وعليها فرسانها إلا أن تصل إلى قلب جيش أعداء الله تعالى . ألم يشتر الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ إذن عليهم أن يلتحموا بأعداء الله في المعركة وأن

---

(١) آية : ٦٠ .

يصلوا من جيشهم إلى الأعماق ، وليس وراء ذلك ، بإذن الله سوى النصر والشهادة . وإلى مرحلة الالتحام الفعلي بالأعداء أشار الشق الثاني من القسم الأول .

الشق الثاني :

هاتان هما الآيتان الكريمتان اللتان تشيران إلى الالتحام الفعلي بأعداء الله تعالى . قال عز من قائل : ﴿ **فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً** ﴾ .

إن أكثر ما يشد الانتباه بشأن هذه المرحلة من الجهاد في سبيل الله وقد التحم الجيشان ذلك النقع الذي أثارته الخيل وقد اشتبك جيش الإسلام بجيش الكفر والطغيان . وإن كر الخيل والفر ، والإقبال والإدبار ، ومواطن الردى التي يردها المجاهدون في سبيل الله ، تجعل النقع الذي يغطي الجيش لكثافته ، هو العلامة المميزة لهذه المرحلة . فهذه الخيل ، وقد اصطدمت بالأعداء ، أثارت عجاجاً ملأ الآفاق . وتبعاً لعزيمة أصحابها ، وجودهم بكل نفس ونفيس ، واستبسالهم في القتال ، أخذت كثافة العجاج في الازدياد ، ملازماً الخيل في اندفاعها المستمر ، وكأنه ظلها ولكنه ظل من عل . حتى تغلغلت خيل الله في أعماق جيش الأعداء . وإلى إثارة خيل الله ذلك العجاج صباحاً أشار قوله تعالى : ﴿ **فأثرن به نقعاً** ﴾ وإلى ملازمة ذلك العجاج خيل الله تعالى وقد راعت قلب جيش الأعداء ، أشار قوله تعالى : ﴿ **فوسطن به جمعاً** ﴾ ونتبه مرة أخرى إلى الاختلاف الطفيف في نغمة هاتين الآيتين الكريمتين ، وإلى تحول الفاصلة عيناً دليلاً على أن دور حاسة العين بيّن ، وإلى استعمال جملتين فعليتين على غير مثال سابق .

وإن المتأمل للآيات التي تصور الحماس الذي ينبغي أن يلازم المجاهدين في سبيل الله وهم يندفعون بوسائل القتال إلى ميدان المعركة ، والتضحية بكل رخيص وغال ، التي ينبغي أن يتسموا بها ، وقد واجهوا أعداء الله تعالى ، وجهاً لوجه ، ويقف بعد ذلك على حال المسلمين المجاهدين في سبيل الله بقيادة المصطفى ﷺ ، يتبين أنهم استفادوا حقاً من هذه الدروس القرآنية ، وكانوا يجمعون أحسن الجمع بين تدبّر معاني القرآن الكريم وبين تطبيقهم عملياً لما علموا .

وبذلك تسنّى لهم أن يجمعوا بحق بين العلم والعمل معاً . وما أحلق المسلمين في كل عصر أن يتأسّوا بالسلف الصالح ، وما أشد حاجتنا في هذا العصر إلى أن نترجم ما نعلم من دروس في الجهاد في سبيل الله تعالى إلى عمل . وبهذا يتبين أن القَسَم ومتعلقاته في هذه السورة الكريمة المكية عبارة عن مجموعة من الدروس التي ينبغي للمسلمين أن يعوها ويطبقوها حرفياً . والآن نتحول إلى القسم الثاني الذي يتضمن جواب القسم ومتعلقاته .

القِسمُ الثَّاني

إنسانٌ يعصي الخالق !

الآيات (٦ ـ ٨)

قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد** ﴾ . ونود أن نلفت الانتباه ابتداءً إلى ما تضمنته هذه الآيات الثلاث ذوات الفاصلة المغايرة لكل من (إنّ) في أولها ، و (اللام) في آخرها المفيدتين للتوكيد ، ولـ (حرف اللين) بين يدي الفاصلة . وهذه الظواهر كلها تتيح للنفس أن تفرغ أكبر كمية من أحاسيسها .

وأول ما يصادفنا في الآية الأولى بعد ذلك لفظة الإنسان التي تعني ذلك المخلوق الذي كرّمه الله تعالى وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً ، والذي سخّر من أجله كل ما في السموات والأرض وأرسل الرسل بمعجزاتهم المادية والمعنوية . وحينما نتبين أن المقسم به ، بمتعلقاته المتعددة في هذه السورة الكريمة ، والذي يكاد يشمل نصف السورة ، إنما يجيء بين يدي جواب القسم المتعلق بالإنسان ، لا نملك إلا أن نحمد لمالك الملك رأفته بالإنسان ورحمته له ، كي يخرج هذا الإنسان من ظلمات الضلال إلى نور الهداية فينال الجزاء الأوفى . ومن أي الزوايا تنظر الآية الكريمة أو الآيات إلى الإنسان ؟ من زاوية طبيعة المرحلة التي يمر بها الإنسان وقتذاك ، وطبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية حيث يقل عدد المؤمنين ويكثر المجرمون ، ومن زاوية استعداد جنس الإنسان ـ إلا من رحم ربك ـ لأن يكون كفوراً للنعم مهوّناً من أمرها ، مذيعاً للنقم مفخّماً لشأنها . إن الغالب على جنس الإنسان أن يكون كنوداً ، على حد قوله تعالى[1] : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ مع أن نعم الله تعالى لا يستطيع أن يحصيها مخلوق ، وقد قال عز من قائل[2] : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن**

---

(١) سورة سبأ : ١٣ .

(٢) سورة إبراهيم : ٣٤

الإنسان لظلوم كفار ﴾ وقال[1] : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ إن ثمة مطابقة بين القسم والمقسم عليه ، فإن المقسم عليه هو كنود الإنسان وجحوده لنعمة ربه وكفرانه بنعمائه ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود** ﴾ وفي ذلك جموح من القلب وعنف في الطبع وشراسة في الخلق وغرور من النفس وافتتان بالقوة . وهذه كلها من أوصاف الخيل حين عدوها وإغارتها[2] .

إنّ واجب الإنسان أن يكون شاكراً في السراء صابراً في الضراء . والشكور والصبور في الجنة . هذا هو خلق المسلم ، وهذا ما نبهت إليه السورة الكريمة في آخر أقسامها ، وهذا ما يفهم من تسجيل القسم الثاني بعض الصفات السيئة في الإنسان بقصد أن يتخلص منها .

وحينما نتبين أن الآية الكريمة تنص على أن جنس الإنسان مستعد لأن يكفر نعمة بارئه ، فذلك دليل على أنه أكثر استعداداً لأن يكفر ما سوى ذلك من نعم .

وحينما نتأمل معنى لفظة الرب في الآية الكريمة ، وهي التي تفيد تربيته عز وجل للخلق بالنعم والآلاء ، ونتأمل لفظة الكنود بمعنى الكفور للنعمة ، ونقارن بين اللفظتين المتجاورتين ، فإن المقارنة تجعل كلًّا من النعم وكفرها أشد وضوحاً ، وهو وضوح يجعل من كان عنده شيء قليل من العقل والإنصاف حريصاً على التخلص من الخصلة السيئة بعد إيقافه عليها . وأولى مظاهر العودة إلى الطريق القويم أن يتحوّل الإنسان شاكراً لأنعم ربه خالقه من العدم وغامره بالنعم ، ويتجى ذلك ابتداءً في عبادته عز وجل وحده لا شريك له .

وإلى وقوف الإنسان ، ذي المقدار القليل من العقل والإنصاف ، ومن باب أولى من هو أحسن منه حالاً ، على حقيقة جحوده للنعم ، أشارت الآية التالية . قال تعالى : ﴿ **وإنه على ذلك لشهيد** ﴾ . من ذا الذي يستطيع أن يزعم بأنه قد قام بكل ما يستطيع أن يقوم به ، فضلاً عما هو مطلوب منه ، من عبادة لله تعالى

---

(١) سورة النحل : ١٨ .

(٢) القرآن وعلم النفس ، عبد الوهاب حمودة ص ١٩ .

حق العبادة كفاء النعم الظاهرة والباطنة التي منَّ الله تعالى بها عليه ، وهو الذي نبه إلى الهدف الأسمى ، الذي من أجله خلق وقد قال تعالى[1] : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ وهو الذي نبه إلى أنّ نعم الله تعالى عليه لا تكاد تحصى ولا تعد ؟ لا يستطيع عاقل أن يزعم شيئاً من هذا . وقد قال عز من قائل[2] : ﴿ **وكان الإنسان كفوراً** ﴾ ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾[3] ﴿ **إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[4] . وإذا كان أكثر الناس عبادة لله تعالى وإقبالاً عليه ، لا يستطيع أن يدّعي شيئاً من هذا القبيل ، فكيف بالآخرين . وبناءً على ذلك يمكن القول إن الإنسان شاهد ، بل شهيد ، هكذا بصيغة المبالغة[5] ، على نفسه بأنه كفور للنعم ، مقصر في جنب الله . وهذه الشهادة تكون بلسان الحال كما تكون بلسان المقال .

والعجيب في أمر هذا الإنسان الكفور للنعم المعترف بذنبه ، أنه أحرص ما يكون على الخير ، وفي مقدمة هذا الخير المال . ألم يقل عز من قائل في محكم كتابه[6] : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ ؟ بلى ..

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) سورة الإسراء : ٦٧ .

(٣) سورة سبأ : ١٣ .

(٤) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٥) انظر اللسان مثلاً ، ففيه أن من معنى الشهيد الأمين في الشهادة والذي لا يغيب عن علمه شيء .

(٦) سورة الكهف : ٤٦ .

القِسمُ الثالِث

بعثٌ فحسابٌ فجزاء

الآيات (٩ ـ ١١)

حيث إن للإنسان في هذه الدنيا وظيفة سامية ، وفي طريقه عقبة صعبة ، ووراءه نتيجة حسنة إن نجح ، سيئة إن أخفق ، فقد نبه القسم الأخير من السورة هذا الإنسان إلى الوظيفة السامية في الدنيا ، وإلى العقبة الصّعبة الممثلّة بعد ذلك في البعث والحساب ، وإلى النتيجة الحسنة في حالة النجاح وإلى الأخرى ، لا سمح الله ، في حالة السقوط والفشل . وكيف لا ينبه الإنسان إلى معالي الأمور والغايات المنوطة به ، وهو الذي كرّمه الله تعالى ؟ ألم تنص السورة الكريمة على الأعمال الخيرة الطيبة التي ينبغي أن يستعان بالخيل على أدائها ؟ وإذا كانت الخيل التي شرفها الله تعالى بأن أقسم بها في محكم كتابه ، قد نبهت السورة الكريمة إلى أهم وظائفها ، بأن تتخذ وسيلة للجهاد في سبيل الله ، فكيف بالإنسان الذي كرّمه الله تعالى بأن حمله على هذه الخيل مثلاً ؟ وإذا كان للخير أن يأتي من جهة الخيل ، وهي التي لا تعقل ، فكيف بالإنسان الذي خص بالعقل والإرادة ، والذي سخر له كل ما في السماوات والأرض ؟ لا شك أن الذي ينتظر من هذا الإنسان كثير وكثير . ونستطيع أن نجمل ذلك الكثير في هذا القول الموجز من أن على الإنسان أن يعرف أن الله تعالى إنما خلقه كي يعبده حق العبادة ، بمعنى العبادة الواسع في الإسلام على نحو ما أوصى به حديث الإحسان : « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[1] .

وهذه هي آيات آخر أقسام السورة ، الذي يعتبر بمثابة الغاية أو الخاتمة ، النتيجة أو الهدف . قال تعالى : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصّل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ .

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٠ .

ولا يخفى أنه إذا كان هذا القسم يركّز على يوم القيامة يوم الجزاء ، فإن اهتمامه بهذه الحياة لا يكاد يقلّ بحال من الأحوال ، لأن الجزاء من جنس العمل كما يقال . فإذا كان الجزاء من نصيب اليوم الآخر فإن العمل من نصيب الحياة الدنيا . ومتى يتسنى للإنسان أن يعمل ما يسر به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ؟ بعد أن يعلم في هذه الحياة ما يجب عليه أن يأتي ويدع ويعمل وفق علمه . وقد صدّرت أولى آيات هذا القسم بالاستفهام الذي يشتم منه روح الإنكار على من لم يعلم مآله الذي ينبغي أن يعلم علم اليقين ، من أن بعد الموت بعثاً فحساباً فثواباً أو عقاباً .

وقد عرضت الآيات الثلاث لهذه المراحل وفق ترتيب حدوثها . وفي ضوء هذا العلم ، على الإنسان الحكيم أن يقلع عن تلك الصفات السيئة فيه والتي أشار إليها ثاني أقسام السورة من كونه كنوداً لربه ، شهيداً بلسان الحال أو المقال على تلك الصفة فيه ، شديد الحب لذات المال ، وأن يتحول إنساناً خليقاً بهذه اللفظة التي لم يبخل بها عليه القرآن الكريم ، حتى حينما يعرض لصفات هذا الإنسان السيئة على نحو قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود** ﴾ وحينما يحس الإنسان بكرامة إنسانيته يتجنب ما نهى الدين عنه ويفعل ما أمر به . وله من القرآن الكريم والسنّة المطهرة وسيرة السلف الصالح ، ضياء ونور وأسوة حسنة . وفي مقدمة الأعمال الصالحة الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ، على نحو ما يفهم من أول أقسام السورة .

وحيث إن هذه السورة الكريمة مكية ، تخاطب في الدرجة الأولى أهل مكة ، الذين يغلب على أكثرهم قسوة القلوب ، والذين هم بحاجة إلى أن يتبينوا أسس الدين وقواعده ، علاماته وصُواه ، قبل الولوج بهم إلى ما وراء ذلك ، فإنها في حديثها عن مآل الإنسان ، تقفز إلى اليوم الآخر متحدثة عن معالمه الرئيسية وفق الإطار الغالب على السورة من تقسيم المعنى الواحد إلى أجزاء ثلاثة ، عن البعث : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور** ﴾ . وعن الحساب : ﴿ **وحصّل ما في الصدور** ﴾ وعن الغاية أو القرار ، الجنة أو النار : ﴿ **إنّ ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ .

أما القول : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور** ﴾ فقد حذف فيه مفعول يعلم ، ويمكن أن يكون التقدير : أفلا يعلم هذا الإنسان مكانه . وتأمل القول بعثر الدال على خروج الخلائق من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، وهو خروج واندفاع يذكرانا باندفاع خيل الجهاد في سبيل الله والعجاج الذي تثير على نحو ما مر بنا في أول السورة ، وكأن بين صدر السورة ووسطها وعجزها تشابهاً في المشاهد على نحو من الأنحاء . والآية الكريمة تستعمل (ما) الدالة على غير العاقل وليس (من) مع أنها تتحدث عن جنس الإنسان . فهل المراد أن الآية الكريمة باستعمالها (ما) وليس (من) تشير إلى مراحل تمو الناس المبكرة في طريقهم لكي يكونوا خلقاً سوياً من جديد ؟ ربما ، فالله تعالى أعلم بالمراد .. وإن القول ﴿ **بعثر ما في القبور** ﴾ قادر على إعطائنا صورة ذلك المشهد الرهيب المهيب وقد بدأت الحياة تدب في الخلق من جديد ، وأخذ خلقهم يكتمل ، وانطلقوا من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، وذلك إثر الصيحة التي عناها قوله تعالى في سورة يس[1] مثلاً : ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ .

وتلي هذه الصيحة صيحة أخرى هي التي يجتمع إثرها الخلائق أمام ربهم للحساب ، وإليها أشار قوله تعالى في سورة يس[2] أيضاً : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لنا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ . وإلى هذه المرحلة أشارت الآية الكريمة التالية في سورة العاديات : ﴿ **وحصّل ما في الصدور** ﴾ .

أمّا تحصيل ما في الصدور فيفهم منه جمع ما حاك في كل نفس ، وتمييز ما خطر بكل قلب ، ومن باب أولى فحص كل ما صدر عن الإنسان من قول أو فعل ، وقد قال عز من قائل في سورة الإسراء[3] : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد**

---

(١) آية : ٥١ ، ٥٢ .
(٢) آية : ٥٣ ، ٥٤ .
(٣) آية : ٣٦ .

كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ . وحينما تكون ثمة قدرة على جمع وساوس النفس وهواجس الضمير وخطرات القلب وفحص كل ذلك ، فمن باب أولى أن تكون ثمة قدرة على جمع ما يلوح لنا نحن البشر أسهل جمعاً وفحصاً . نقول هذا بلغتنا نحن البشر وإلا فإن الأعمال كلها سواء بشأن مالك الملك الذي يعلم السر وأخفى . ونحبّ أن ننبه إلى اتساع المعاني التي تشملها لفظة الصدور ، فإنها أوسع لفظة تحتل هذا المكان ، إذ لا تقوم مقامها النفوس أو القلوب ولا تسدّ مسدّها معنًى وصوتاً .

وتختم السورة الكريمة بالقول : ﴿ **إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ وهـــذه الآية الكريمة تشير إلى الثواب والعقاب معاً . ألا نتبين أنها تعدل عن ضمير المفرد الغائب الذي استعملته في قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود** ﴾ إلى ضمير جماعة الغائبين؟، مع إمكان استعمال ضمير المفرد في قوله تعالى : ﴿ **إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ وكأن الآية الكريمة تشير إلى كل إنسان وليس فقط إلى ذلك الكنود لربه ، وكأن بين أولئك الكنودين من تحوّل شكوراً ، والبخلاء من أنفق ماله في سبيل الله بعد تدبّر أمثال هذه الآيات في الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة ، إن باب التوبة مفتوح على مصراعيه دائماً : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[1] ولا يخفى أن التوبة النصوح ينبغي أن تشفع بالإيمان والعمل الصالح . قال تعالى[2] : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً . إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً** ﴾ .

وإن كتاب الأعمال الذي يؤتاه كل إنسان يوم القيامة ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، من خير أو شر ، إلا أحصاها . وسيثاب الناس أو يعاقبون وفق الحسنات أو السيئات يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

(٢) سورة مريم : ٥٩ ، ٦٠ .

ظاهرة تلاؤم الأصوات

اتجهت نظراتنا السابقة غالباً إلى المعنى من زاوية التعاون الكامل في القرآن الكريم بين المعاني والمباني ، بين إشباع العقل وإرضاء النفس . ونودّ في هذه المرحلة من الدراسة المتأمّلة لسورة العاديات أن نقصر الحديث على ظاهرة تلاؤم الأصوات في ضوء ذلك التعاون الكامل الذي إليه أومأنا .

معروف أن القرآن الكريم ليس بالشعر ولا بالنثر . أما كونه ليس شعراً فقد تواثر على ذلك النقل والعقل . وأما كونه ليس نثراً ، فالمراد أنه ليس من ذلك الجنس من النثر الذي تعارف عليه البشر وتفاوتت أنصبتهم في الأخذ بنصيب منه . ودليلنا على أن القرآن الكريم ليس من ذلك النوع من النثر المتعارف عليه ، هو أن البشرية عجزت عن الإتيان بسورة واحدة من مثله ، فضلاً عما وراء ذلك . وإذا كان القرآن الكريم ليس بالشعر ولا بالنثر المعروف ، فالحقيقة أنه إلى النثر أقرب ، على أساس أنه ذلك الأسلوب المعجز الذي يأخذ من الشعر ومن النثر أجمل ما فيهما . فإذا كان الشعر يمتاز بموسيقاه الكاملة ، وقافيته الصارمة ، وتصويره الجميل ، وإذا كان النثر يمتاز بحريته الكبرى في التدفق والانسياب ، فإن في القرآن الكريم جميل ما في الشعر والنثر معاً ، من موسيقى وفاصلة حرّتين ، يوجههما المعنى في تؤدة ورفق وليس العكس مطلقاً كالذي يوجد في الكثير من الشعر . هذا إلى التوازن العجيب الدائم في القرآن الكريم بين القدرة على إرضاء العقل بفصوص حكم المعاني وإشباع النفس بجميل تركيب المباني ، بينما يطغى في تراث البشر أحد الجانبين على الآخر ، هذا إلى التفاوت بين مستويات الأثر الواحد من صنع البشر في مجالي الشعر والنثر على السواء .

وإذا نظرنا إلى سورة العاديات الكريمة ، من زاوية ظاهرة تلاؤم الأصوات ، وذلك في ضوء الحقيقة الماثلة من كون القرآن الكريم يتمثل فيه خير ما في الشعر والنثر معاً ، ففيه التوازن العجيب بين تدفق المعاني وشاعرية المباني ، فإنا نستطيع أن نقسم السورة الكريمة ، من وجهة تلاؤم الأصوات إلى ذات الأقسام الثلاثة السابقة التي سبق لنا أن قسمنا السورة الكريمة إليها من جهة المعاني . فإلى هذه الظاهرة في :

القسم الأول :

قال تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً ﴾ .

وحينما نتعامل مع الشق الأول ذي فاصلة الحاء يتبين لنا أن الآيتين الأولى والثانية متساويتان صوتياً تماماً ، إذ تتركب كل من سبعة مقاطع[1] مرتبة في الآيتين الكريمتين ترتيباً صوتياً واحداً :

والعاديات ضبحاً — فالموريات قدحاً

وقد أشار الباقلاني في إعجاز القرآن[2] إلى أن هذا يوافق من الوجهة الصوتية بحر البسيط .

وحينما نتعامل مع الشق الثاني ذي فاصلة العين يتبين لنا أن الآيتين معاً متساويتان صوتياً تماماً ، إذ تتركب كل من ثمانية مقاطع مرتبة في الآيتين الكريمتين ترتيباً صوتياً واحداً .

فأثرن به نقعاً — فوسطن به جمعاً

ولعلنا لاحظنا اتجاه الآيات الملحوظ إلى زيادة عدد مقاطع الكلام ، إيحاءً بالزيادة المطردة في كل قسم مستقبلاً .

ويبقى بعد ذلك الحديث عن الآية الثالثة في الشق الأول ذي فاصلة الحاء .

---

(١) مقاطع الكلام ، وفق دراسة المستشرقين ثلاثة : صغير أو قصير : رمز له بخط قصير وهو يقابل في الكلام الحرف المتحرك . ومتوسط : رمز له بالرقم ٥ أو دائرة صغيرة ، وهو يقابل حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن . وطويل : رمز له بالرقم ٩ وهو يقابل ثلاثة أحرف ، أولها متحرك يليه ساكنان . ولا يجيء هذا المقطع إلا في نهاية كلام يسكت عنده .

(٢) ص ٥٣ من الطبعة الثالثة تحقيق السيد أحمد صقر . وأصل تفاعيل بحر البسيط :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن — مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

إنها باعتبارها تمثّل من جهة المعنى مرحلة انتقالية بين حالتين ، على نحو ما مر بنا من قبل ، فإنها تقوم بوظيفة الإشعار بدورها القريب الشبيه بدور همزة الوصل . إذ تربط بين الحالتين السابقة واللاحقة ، المتصلتين لأنهما حلقتان من سلسلة المعنى الواحد ، المنفصلتين لأن كلًّا منهما يمثّل حالة قائمة برأسها . أمّا أنها تشعر بالاتصال فلأنها في فاصلة الحاء ، وتتكون من سبعة مقاطع على غرار ما سبق . وأمّا أنها تشعر بشيء من الانفصال ، فلأنّ ترتيب هذه المقاطع السبعة متميز ، دليلاً على تميّز هذه المرحلة الانتقالية ، وتهيئة للنفس بقبول النغمة الصوتية والفاصلة في الشق الثاني من القسم . وكل ذلك تبع لاتجاه المعاني على نحو ما مرّ بنا من قبل .

القسم الثاني :

قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد** ﴾ .

في حالة الوقوف على كل فاصلة بالسكون ، نكون بصدد اثني عشر مقطعاً الأخير فيها طويل ، في كل آية . ولعلنا لاحظنا ارتفاع عدد المقاطع في هذا القسم ، تمشياً مع اطراد الارتفاع في عدد المقاطع بمناسبة كل قسم جديد في السورة . وإذا كان ترتيب المقاطع لا يتفق في الآيات ، فما ذلك إلا لأن الآيات أخذت تمتد طولاً ، ولأن الفرق بين المقطع المتوسط والقصير ليس بعيداً ، فما أكثر ما يتحول في الشعر ، فضلاً عما سواه المقطع المتوسط قصيراً . ولا ننسى أن التنويع في حالة طول الكلام دليل على الحرية المطلقة للمعنى ، وهي أحسن الصفات التي سبق أن قلنا إن النثر يمتاز بها . ولا ننسى أيضاً أن حرية الأصوات التابعة لحرية المعاني مقدّرة مضبوطة . لاحظنا ذلك خاصة في كون كل آية تتكون من ذات العدد للمقاطع الذي تتكون منه الآية الأخرى ، وتشتمل على ذات الفاصلة المسبوقة بحرف لين .

وثمة ملاحظة نود أن ننبه إليها هي أن المعنى في هذا القسم هو الذي جعل عدد المقاطع بالذات واحداً في كل الآيات . وتفسير ذلك أن أولى آيات هذا القسم واقعة في جواب القسم في أولى آيات السورة . فثمة التحام بين جزئي الكلام أغنى عن أية إضافة يوجبها السياق للربط بين أجزاء الكلام ، وذلك على غرار الإضافة التي اقتضاها المعنى بين يدي أولى آيات القسم الأخير .

القسم الثالث :

قال تعالى : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصّل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ .

حيث إن السّياق يريد أن ينقل الإنسان من هذه الدار إلى الدار الآخرة ، ويريد أن يعلمه ما ينبغي أن يعمل في هذه الحياة كي يفوز في الدار الآخرة ، دار الجزاء ، فقد اقتضى السياق التهيئة للانتقال من إحدى الدارين إلى الأخرى ، وللعلم بقصد العمل وأخذ العدّة لذلك اليوم المجموع له الناس المشهود : فكانت تلك التهيئة الموجهة للإنسان المتمثلة في القول بين يدي الآية الأولى : ﴿ **أفلا يعلم** ﴾ . ولا ينبغي أن يفهم أن التلاؤم الصوتي غير واضح في هذا القسم ، وكيف يظن شيء كهذا وبين أيدينا الفاصلة الواحدة في الآيات مسبوقة بحرف اللين ، فجاء في نهاية كل آية في حالة الوقوف بالسكون مقطع طويل على غرار ما جاء في القسم السابق . وبين أيدينا أطول آيات السورة على الإطلاق ، إذ الآية الأولى في خمسة عشر مقطعاً والثالثة في أربعة عشر مقطعاً . وبين الآية الثانية التي تمثل مرحلة قائمة برأسها يوم القيامة ﴿ **وحصّل ما في الصدور** ﴾ وبين الجزء من الآية الأولى الذي يمثل هو أيضاً مرحلة قائمة برأسها يوم القيامة ﴿ **بعثر ما في القبور** ﴾ تطابق صوتي كامل في حالة اعتبار حرف العطف الواو في الآية الثانية خارجاً عن طبيعة كل من المرحلتين المتميزتين ، إذ يتكون كل من التعبيرين من سبعة مقاطع صوتية تتفق في كل شيء .

خاتمـــــة

ممّا سبق يتبين أن السورة الكريمة مجموعة من الدروس المكلف بها الإنسان المسئول وحده عن كل ما يصدر منه . فإن أحسن وأجاد أثيب وفق درجة الإحسان والإجـــادة . وإن كانت الأخـــرى كان الجزاء وفـــق العمـــل ﴿ **ولا يظلـــم ربك أحداً** ﴾[1] . ومن أهمّ مظاهر المسئولية التي على الإنسان أن يقوم بواجبه إزاءها وإلا فهـو مقصّر معـاقب ، إعـداد العـدة للجهـاد في سبيـل الله ، بإنفـاق المال والجهـاد بالنفس . وبذلك يتم إعزاز دين الله تعالى بعـد أن يكـون قد استشهـد من أولياء الله تعـالى من أكرمهـم عز وجـل بالشهـادة . وإذا كان الأحياء من المجاهديـــن فرحين بالنصر ، وحُقّ لهم أن يفرحـوا ، فإن الشهـداء فرحـون بما آتاهـم الله من فضلـــه ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم . إنّ هذا القسم من سورة العاديات ، كأنه يقول للمجاهدين عليكم العمل والاجتهاد فيه ، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد . وثمة العديد من المشاهد التي تركتها السورة والتي يستطيع الذهـن أن يملأهـا أو الخيال أن يتصورها . في أول السورة يطالعنا لأول وهلة مشهد خيل الجهـاد في سبيـل الله وهي في أقصى اندفاعها تجاه ميدان المعركة . ومعروف أن ثمة العديـد من المراحـل السابقة والمفهومة ضمناً ، من إعداد للقوة وحسن تدريب لاستعمالها ساعة الحاجـة . وفي نهاية هذا القسم يسكت عن نتيجة المعركة اكتفـاء بإيمان هذه الفئـة المجاهـدة في سبيل الله من أن الله تعالى قد تكفل بنصر عبـاده المجاهديـن في سبيلـه . وإن الشيء ذاتـه يقـال في نهايـة السورة . فالمصير معـروف ، إمـا إلى الجنـة أو إلى النـــار وبئس القرار .

---

(١) سورة الكهف : ٤٩ .

وقد أمكن القول عن هذه السورة الكريمة التي تتجلى وحدتها المعنوية والصوتية في أسمى الصور ، إنها تحثّ الإنسان على أن يكون إيجابياً في هذه الحياة ، يبتغي من كل أعماله وجه ربه الأعلى كي يثاب في الحياة الأخرى وفق أعماله الصالحة .

وحيث إن السورة مكية ، تراعي طبيعة المرحلة التاريخية التي تمرّ بها الدعوة الإسلامية قبل الهجرة ، فقد كان الحديث عن الإنسان محور السورة ، مراعياً طبيعة تلك الفترة ، فكان من زاوية ذلك الإنسان الذي غشّى فطرته ما تراكم عليها من غبار الأزمان فنسي العهد الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم عليه السلام الذين أشهدهم على أنفسهم بأنه تعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . إنّ السورة الكريمة تنبّه الإنسان إلى ما غفل عنه وترشده إلى الطريق الصحيح الذي يسلك استعداداً ليوم الجزاء .

وقد كانت نظرتنا الأخيرة للسورة الكريمة من زاوية ظاهرة تلاؤم الأصوات ، حيث تبيّنا أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين إرضاء العقل بفصوص حكمه وعمق معانيه وبُعد مراميه ، وبين إشباع النفس بتدفّق مائه ، وكثرة رونقه ، وانسياب موسيقاه .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . والحمد لله رب العالمين .

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمـــة	٥
نظرة أولى للسورة	٩
نظرة ثانية للسورة	١٣
القسم الأول : حيوان يطيع المخلوق الآيات (١ ــ ٥)	١٥
الشق الأول	١٧
الشق الثاني	٢٢
القسم الثاني : إنسانٌ يعصي الخالق الآيات (٦ ــ ٨)	٢٥
القسم الثالث : بعثٌ فحسابٌ فجزاء الآيات (٩ ــ ١١)	٣١
ظاهرة تلاؤم الأصوات	٣٧
القسم الأول	٤٠
القسم الثاني	٤٢
القسم الثالث	٤٣
خاتمـــة	٤٥